الحلم والنبوءة في أدب باكثير
دراسة في قصيدة مخطوطة

أ. د. حلمي محمد القاعود

– 1 -

يظل الأديب الراحل **على أحمد باكثير** (1328 – 1389 هـ = 1910 -1969 م) أنموذجا للأديب العربي المسلم الذي عاشت قضايا أمته في خلاياه الدموية، وكان يتنفسها شعرا ونثرا، يعيشها في حياته الخاصة والعامة، كان مهموما بقضايا الأمة ومتاعبها وأحلامها وآمالها، كان منذ بداياته مشغولا بكل ما هو مهم وحيوي وإنساني.. أضنته فرقة العرب، وشغفته وحدتهم وقوتهم ونهوضهم، رثى للمسلمين في خيباتهم وخسارتهم أمام أعدائهم، وغنى للأمل الذي قد يتبدى هنا أو هناك، من خلال موقف أو حالة، هاجر إلى التاريخ ليعالج الواقع والمستقبل الذي يعيشه العرب والمسلمون، ويبث فيهم روح العمل والصلابة والصمود والتحدي من خلال الآباء والأجداد الذين كانوا منارة للعزة والكرامة والحرية والاستقلال..

كانت مواهبه المتعددة في القصة والرواية والمسرح والمقالة والملحمة والشعر ميدان تعبيره عن آلام الناس وأحلامهم في العشرات من الكتب والمؤلفات التي طالعها الناس على امتداد ثمانين عاما تقريبا، في أوراق منشورة أو على خشبة المسرح أو عبر أثير الإذاعة أو شاشات التلفزة، وكان فيها منحازا لدينه وأمته وعالم العرب والمسلمين والإنسانية بمفهومها الواسع العريض.

كانت قضية فلسطين التي تزامنت مأساتها مع مولده ونشأته، وتطورت محنتها مع بداياته ونضجه، ووصلت إلى ما يشبه الغاية في قسوتها وشدتها مع قمة عطائه ورحيله، هي الهاجس الذي يسكن وجدانه وخلاياه الدموية، ولذا وقف عليها معظم إنتاجه المسرحي والشعري والقصصي وخصص لها جانبا مهما من كتاباته بصفة عامة، وأود أن أضع هنا شهادة مهمة للكاتب والمترجم الفلسطيني الراحل **خيري حماد** تكشف عن تعلقه بفلسطين، وإدراكه لما يخططه الأعداء لها، ويحذر من سقوطها في أيديهم، وللأسف! فقد تحقق ما توقعه وحذر منه. يقول حماد:

[كان علي أحمد باكثير رحمه الله من أوائل إخوتنا الأدباء العرب الذين تفهموا قضية فلسطين ووعوا خطرها قبل نكبة سنة 1948م. ويتفرد باكثير بأن يكون الأديب العربي الوحيد الذي أعطى قضية فلسطين جل اهتمامه في مسرحياته، وتنبأ بقيام دولة إسرائيل في مسرحية (شيلوك الجديد) التي كتبها سنة 1945م، وحذر من الهجرة اليهودية والدعم الذي يقدمه كل من الغرب والشرق لإسرائيل في مسرحياته التالية

موقع الأديب علي أحمد باكثير

وفي كثير من التمثيليات القصيرة. وكل هذا يفضي بوعيه العميق وإحساسه الإسلامي العربي الصادق بمأساة فلسطين، لأنه رأى فيها لا مأساة العرب وحدهم وإنما مأساة المسلمين جميعاً. وهذا كله يجعله رائد قضية فلسطين في فن المسرحية العربية لا يدانيه في هذه الريادة أديب آخر.

رأيت دموع باكثير وكنا في خان يونس كما أذكر عندما جاءني بعض أبناء البلدة وكنا نعقد ندوة أدبية يطلبون مني أن يستمعوا إلى الأستاذ باكثير الذي قرؤوا له مسرحياته عن فلسطين، ورجوته أن يتكلم في تلك الندوة وكان كريماً فلبى الدعوة، فأخذ بألباب السامعين وانطلق يتحدث إليهم عن قضية فلسطين وفهمه لها ووعيه بها ويحذرهم من الأخطار المحدقة بهم ويشرح لهم الواجب الملقى على الأمة العربية والإسلامية كلها، وكأنه كان يطلع على الغيب ويعرف أن نكبة عام 1948م ستلحق بنكسة عام 1967م ويضيع ما تبقى من أرض فلسطين. وذهبنا في اليوم التالي كما أذكر إلى (بيت حنون) وكانت (بيت حنون) هي الحد الفاصل بين قطاع غزة والأرض التي تحتلها إسرائيل، ووقفنا هناك على الحدود كلنا معشر الأدباء وأبصرت بالدمعات تتساقط من عيني الأستاذ المرحوم الفقيد الغالي باكثير وهو يقف عند ذلك الشريط وعلى بعد أمتار قليلة فيرى الثكنة الإسرائيلية وقد ارتفع عليها العلم الإسرائيلي، رأيت عبرات باكثير فلم أعجب، فقد أحب باكثير فلسطين كما أحب وطنه حضرموت والقاهرة وكل وطن عربي، بل إن لفلسطين مكانة خاصة في نفسه رافقته طوال حياته، فقد أحب باكثير فلسطين حباً عميقاً برز في كتبه وبرز في تلك الرحلة التي نعمنا بلقياه فيها على أرض فلسطين. وتحدثنا في تلك الليلة عن ذلك المنظر الذي شاهدناه على شريط الحدود مع إسرائيل في الصباح، وقال باكثير –وإني أذكر حديثه إلى الآن: يا أخي إني أرى أن البقية الباقية من فلسطين ستضيع ما دمنا على هذه الحال، وصمت، وكان إحساسه صادقاً فما مضى عام حتى أخذت إسرائيل كل فلسطين.

الأمنية الأخيرة لفلسطين: وكان لقائي الأخير بباكثير قبل خمسة أعوام من وفاته، وكان معنا في دار اتحاد كتاب فلسطين. جاء في إحدى زياراته، إذ لم يكن ينقطع عن زيارة الدار بل يؤمها من فترة إلى أخرى، وجلسنا في الحديقة نتحدث فقال لي إنه يعتزم أن يكتب مسرحية جديدة عن المقاومة الفلسطينية وأنه يطمع قبل الشروع في كتابتها في القيام بزيارة لمنطقة الأغوار في خط المواجهة مع إسرائيل على نهر الأردن ليعيش أياماً مع الفدائيين، فقلت له: ومن أحق منك يا أخي باكثير بالذهاب إلى هناك؟

وبالفعل وجهت في اليوم التالي رسالة إلى قيادات الكفاح المسلح على نهر الأردن أطلب الإعداد لزيارة الأستاذ باكثير لخط المواجهة مع إسرائيل، ولكن المنية سبقتنا واختاره الله إلى جواره في الوقت الذي عزم فيه على المواجهة بنفسه. فليحتسبه الله

جل وعلا شهيداً من شهداء فلسطين، فقد جاهد بقلمه وبنفسه طوال حياته، ونسأل الله أن يجمعه بمن أراد لقياهم من الشهداء والصديقين والأبرار] (1).

شهادة خيري حماد لا تحتاج إلى شرح أو تعليق، لأنها واضحة بما فيه الكفاية، وتقدم الرجل الذي عاش حياته لفلسطين، ودمعت عيناه قبل عام 1967م ؛ وهو يرى العلم الصهيوني مرفوعا على ثكنة عسكرية بالقرب من بيت حانون، وخشي أن تسقط بقية فلسطين نتيجة للأوضاع العربية السيئة، لكنه أيضا كان هو الرجل الذي شهد الكارثة عام 1967م، إذ سقطت كل فلسطين وسيناء والجولان وبعض الأراضي الأردنية واللبنانية التي صارت رهينة بيد الغزاة النازيين القتلة، فكانت دموعه هذه المرة صامتة ومكتومة، ولكنه ترجم عنها في هذه المخطوطة التي تضم قصيدته الطويلة إذ تبدو مشروع ملحمة شعرية، ولكنه اكتفي بمقاطعها التي تصل إلى سبعة وعشرين مقطعا، توقع فيها أن ينتصر العرب، وأن يكسروا شوكة العدو، وأن يستعيدوا أمجاد الآباء والأجداد منذ معركة بدر في صدر الإسلام حتى معركة حطين التي قادها صلاح الدين الأيوبي، وحرر من خلالها القدس وطرد الصليبيين، وأعاد للأمة الإسلامية كرامتها وعزتها.

-2-

كان باكثير في شعره الغزير الذي لم يجمعه في حياته وتركه مخطوطا لأنه كان يلقيه في مناسبات جماهيرية أو اجتماعية، أو منشورا في بطون المجلات والصحف (2)، مرتبطا بما يجري على الساحة السياسية والوطنية والقومية، ولذا نجده يوظف المناسبات المختلفة لتناول هموم الأمة وآمالها، وقد أتيح لي قبل سنوات بعيدة تقرب من ثلاثين عاما أن أنشر قصيدة مخطوطة له حصلت عليها من بعض أقاربه في القاهرة، وكانت معارضة لقصيدة البوصيري (البردة) في مدح الرسول الأعظم - صلى الله عليه وسلم - فوجدته يوظفها في عرض أحوال العرب في زمانه (مابين العشرينيات والثلاثينيات في القرن الماضي)، وكان باكثير يومها في سن باكرة نسبيا ؛ ولكنها تنبئ عن وعي حاد بما يجري للأمة وما ينتظرها وما يتوقع منها. كانت قصيدته الطويلة "نظام البردة" قراءة مبكرة لما تعانيه الأمة داخليا وخارجيا، وأملا يحلم بتحقيقه على يد أبنائها، وكان يقول فيها عن العرب والمسلمين والإسلام:

أرنو إلى يعرب – والدهر يعرضها	رواية البؤس بعد العز والنعم
تقاسمتها شعوب الغرب تدفعها	إلى المهالك سوق الشاء والنعم
وأرمق الدين والأعداء توسعه	فتكا يضاف إلى أدوائه القدم

ولا ينسى أن يرصد ما يجري في وطن آبائه الصغير (الأحقاف)، ويرى قانون التقدم والتخلف منطبقا عليه كما هو منطبق على موطن أمته الكبير، فالجهل والظلم

والترف، والبعد عن الدين، والفرقة وغيرها عناصر تخلف وضعف وانهيار وهزيمة ويقول فيها:

وأرجع الطرف إلى الأحقاف غارقة ... في الجهل فوضى بلا عدل ولا نظم
تفننت في ملاذ العيش, تاركة ... ما تقتضيه، لم تفطر ولم تصم
والخلف محتكم فيها، يمزقها ... حتى يغادرها لحما على وضم

والقصيدة بصفة عامة تشير إلى نضج فني وفكري لدى باكثير الذي كان آنئذ في الخامسة والعشرين من عمره، وهو امتياز تحقق لا يتحقق لغيره أو أمثاله في هذه السن، وقد نشرت القصيدة مفردة في كتيب، وضممتها بعدئذ في كتابي القصائد الإسلامية الطوال في العصر الحديث(3).

ونلمس في نظام البردة مدى تدفق مشاعره الحارة تجاه أمته، إذ يشعر بالسعادة عندما يراها سعيدة، والعكس عندما تنكسر أو تشقى:

أنا السعيد إذا ما أمتي سعدت ... حالا وفي ذلها ذلي ومهتضمي
إذا أملت ففي آمالها أملي ... وإن ألمت ففي آلامها ألمي!

ويلاحظ أن باكثير – كما سبقت الإشارة – يحرص على الإفادة في كل المناسبات الممكنة ليشير إلى قضايا الأمة أو تاريخها أو مستقبلها، فمثلا عندما ذهب إلى استانبول عام 1969م قبيل وفاته، نظم قصيدة عن مآذن استانبول، وأشار إلى سلاطين آل عثمان، ودورهم في خدمة الإسلام وإعزازه، يقول فيها:

وكم بالأستانة من معان أثارت في حناياي الشجونا
معانٍ ليس تعدلها معا ن تفجر في الفؤاد هدى مبينا
مآثر من بني عثمان شادت من الدين الحنيف بها حصونا
تزيد الكافرين أسىً وغيظا إذا نظروا وترضي المؤمنينا

ويختمها بقوله وكأنه يشير إلى إحدى قصائد **محمد عاكف** شاعر تركيا الأشهر في العصر الحديث:

كأن قبابها خوذات صلبٍ ... لمعن على رؤوس مجاهدينا
ومن ينظر مآذنها يجدها ... رماحا في صدور الكافرينا

وقد خصص باكثير عددا كبيرا من القصائد المباشرة بتناول القضايا الوطنية والقومية والإسلامية، تحدث فيها عن أحوال الأمة وأمانيه بالنسبة إليها، ومنها قصائد تؤكد اهتمامه بقضايا الحرية والتحرر والاستقلال منذ زمان بعيد كما نرى في قصيدته المؤيدة لثورة اليمن عام 1948م، وقصيدته في تحية المجاهدين المغاربة ضد الاستعمار الفرنسي من خلال تحية علال الفاسي، ومنها على سبيل المثال قصائد أخرى متنوعة: تحية العهد الجديد، آه يا مصر أحبك، على لسان شهيد، العضو الذي

فسد، في ظلام السجن، بين الصمود والذهول، نداء العروبة والدين....وله قصيدة بعنوان " يا من لليل العرب "، يهجو فيها العرب لتقصيرهم في حق أنفسهم، ويرى أن أبناءهم سبب أمراضها ونكستها، وهم الذين يمكّنون الأعداء بعضهم لبعض من أنفسهم بتفرقهم وخلافاتهم وعداوتهم، وجاء فيها:

يا من لليل العرب طا ... ل فهل فجر فينظر؟

أفكلما نهض الفتى ... منهم بأمته، تعثر؟

أو كلما ابتسم الزما ... ن بسيد منهم تنكرْ

ويح العروبة داؤها ... أبناؤها فيهم تضرّرْ

نبذوا الإخاء فبعضهمْ ... للبعض من أعدائهم شرْ

يتعللون بمذهب ... والحق مثل الصبح أنور

الدين دين الله في ... فكل شعب قد تثوّر

هبوا بني العرب الكرام ... فكل شعب قد تثوّر

عزت شعوب الأرض ... والعربي ممتهن محقّر

وفي الأحوال كلها، فإن باكثير يبث روح الثورة في نفوس العرب لينهضوا مثلما ثارت شعوب الأرض وعزت وتقدمت، ولا يبقون محقرين أذلاء.

ويعد باكثير من أنصار الوحدة العربية بمفهومها الإسلامي عبر عن ذلك في شعره ونثره على السواء، فمع حبه للأحقاف أو حضرموت موطنه الأصلي، فقد أحب الحجاز وأهلها، وكانت له علاقات وصداقات عبر عنها شعرا ونثرا، وفي مصر التي ضمت رفاته، وعاش فيها معظم حياته؛ كأنه واحد من أبنائها ؛ يحبها ويغار عليها، حتى تلك البلاد العربية والإسلامية البعيدة كان لها مكان في نفسه، بحكم أن بلاد العرب واحدة، وبلاد المسلمين تضم أمة واحدة.

-3-

وقصيدة باكثير المخطوطة موضوع الدراسة "نكون أبدا أو لا نكون"؛ تدور في إطار ما يعرف بأدب النبوءة أو التوقع، والتبشير بالنصر في زمن الهيمنة، وقد كانت بالفعل صرخة داوية في وقت بدا فيه أن الظلام الحالك الذي حل بأرض العرب والمسلمين، لن يزول، ولن يفارقهم، فحجم الهزيمة الساحقة التي جرت في الخامس من يونيو 1967م، كان فوق أي توقع، وكان الانهيار النفسي والعصبي لدي العرب على مستوى الشعوب والأفراد عاتيا ورهيبا، كانت القلوب ممزقة، والأكباد مفتتة، والنفوس مجروحة، والأجساد مجرد هياكل متخنة بالجراح، لا روح فيها ولا حياة، ومن كان يراقب منظر الجنود العائدين من جبهات القتال، كان يرى المهانة في أبشع

موقع الأديب علي أحمد باكثير

الصور التي عرفها الناس، وانكمش الناس على أنفسهم، وانعزلوا بعيدا عن بعضهم وراحوا ينوحون على وطن مفقود، ومقدسات ضائعة، وكرامة مهدرة، وشرف قد تلوث..

ولكن باكثير كان ابن الرؤية الإسلامية الناضجة، التي تمتص الصدمات، وتتجاوز الواقع الجريح، وتصمد وتواجه وتعمل للانتصار على الهزيمة، وبالفعل كانت قصيدته التي كانت إذاعة القاهرة تبث مقاطعها الطويلة يوميا من خلال برنامج صباحي عقب الهزيمة بأيام قليلة، جعلت من مهمتها الأولى بث الأمل في النفوس، وتضميد الجراح، والتهيئة للمقاومة والمواجهة، ومن يتأمل عنوان القصيدة " نكون أبدا أو لا نكون "، يجد هذه المهمة ضمنيا؛ فالكينونة هي الوجود، والوجود مرادف هنا للنصر، وكسر شوكة العدو لنظل على قيد الحياة، وإلا فإننا سنكون مع الموتى إن لم ننتصر، والعنوان كما نرى يستخدم الفعل المضارع الذي يعني الاستمرار والمضي نحو المستقبل، ولعل اختيار الشاعر لبحر الرجز الذي يشير في جانب أساسي منه إلى السير الحثيث والتدفق السريع منح قصيدته بعدا فنيا يتطابق وحركة الكينونة والوجود..

ومضمون القصيدة الذي يحتفي بفكرة البشارة بالغد الآتي، كان أكثر إيجابية، من القصائد الأخرى التي قيلت آنئذ ؛ وهي التي لم تستطع التخلص من النواح، والوقوف عند الجوانب السلبية بالبكاء على ما يجري للمهزومين، أو إدانة المقصرين، أو هجاء السلطات وممارساتها القمعية والفساد الذي يعشش في أرجاء الإدارات الحكومية والقيادات السياسية والعسكرية.. باكثير كان يستشرف المستقبل، ويسارع إلى التبشير برؤية متفائلة، في قلب الجراح الغائرة، ولهذا كانت فكرة الزمن التي شغلت باكثير طويلا متلاقية وفكرة النبوءة أو البشارة بمعنى أدق، وفكرة الزمن عند باكثير قائمة في أشعاره بصورة ملحوظة، منذ زمان بعيد، وربما من بداياته الأولي، وهو ما لاحظه **عبده بدوي** – رحمه الله – إذ رأى أن باكثير معني بالزمن الماضي والزمن الحاضر، فإذا كان شعراء عصره مشغولين بالزمن الماضي وحده، فهو مشغول بالزمن الماضي، ويأتي بالزمن الحاضر الذي يعني أنه يتناول أشياء كثيرة، والزمن عند باكثير ليس الزمن الوجودي عند سارتر وغيره وعند عبد الرحمن بدوي، فالزمن عنده هو الزمن الإسلامي، وهو زمن أشعري باقلاني كما هو معروف عند الأشعري الذي يقول: "الزمن هو توال غير مستمر للذرات الزمنية، وأن الله يخلق العالم في كل ذرة زمنية ويظل يخلق أبدا "، وهذا المعنى متكرر في قصائد كثيرة لباكثير..

ويشير عبده بدوي إلى أن باكثير يتكلم بما يسميه الزمن العربي وينتهي إلى أنه كان للعرب زمن عظيم رائع ويحاجج ويرفض الزمن الخاص بالأوربيين، ويقول: " نحن

الذين أنشأنا الزمن "أو ما معناه أننا الآن خارج الزمن، ولكننا كنا قبل ذلك الزمن ..(4)

وقصيدة نكون أو لا نكون، قصيدة زمنية بامتياز، يتجاور فيها الماضي مع الحاضر والمستقبل، وتبدأ منذ سطورها الأولى بطرح قضية الزمن طرحا مباشرا يتكرر بعدئذ في ختام كل المقاطع بما يعطي دلالة على عمق الفكرة الزمنية في تفكير باكثير، وهيمنتها عليه. إن القصيدة تبدأ هكذا:

غدا بني قومي وما أدنى غدا
إما نكون أبدا
أو لا نكون أبدا

إنه يبدأ القصيدة مباشرة بالحديث عن الزمن، ويستدعي المستقبل عبورا فوق الحاضر، ومن غير التفات إلى الماضي، وفي تكرار لفظة (غدا) ما يفيد اهتمامه بالمستقبل الذي ستنعقد فيه رايات الظفر والانتصار، وينادي بني قومه مع حذف أداة النداء بوصفه في قلبهم وليس بعيدا عنهم، ويستخدم أفعل التفضيل ليقينه أن النصر قادم بأسرع مما يتصور أكثر المتفائلين (وما أدنى غدا)، وهو بالطبع لا يعني أن ننتحر إذا لم ننتصر، فالرجل يعني أن ننتصر في الميدان، أو تكون الشهادة هي النجاة من الواقع المهزوم، وعلى الأمة أن تهيئ نفسها لذلك، وباكثير يجعل من ندائه لبني قومه لازمة تتكرر على امتداد القصيدة ليؤكد أن الغد سيكون لنا بإذنه تعالى.

والانطلاق إلى المستقبل قضية مسلمة، يشرحها بيسر شديد، فإما نكون أمة من أعظم الأمم ترهبنا الدنيا وترجونا القيم، ولا يقال للذي نريد لا، ولا يقال للذي نأبى نعم، ويشير إلى أن السر في ذلك هو: (تدفعنا الهمم، لقمم بعد قمم) أو نتقاعس ونتخاذل فنصير قصة من العدم (تُحكى كما تحكى أساطير إرم !). ومن ثم يكرر مطلع القصيدة في ختام المقطع، ليذكر العرب بأن مسألة المستقبل أمر لا يحتمل النقاش، وأن صناعته بالانتصار والحضور القوي لا مفر منها:

غدا وما أدنى غدا لو تعلمون

إما نكون أبدا أو لا نكون

-4-

يلاحظ أن باكثير يحرص في قصيدته على استخدام منهج النقاش المنطقي للإقناع برؤيته المتفائلة المبشرة بالنصر والكرامة، وذلك عبر عملية التخيير التي يقدمها لنا نحن العرب، وباستخدام الضمير الجمعي (إما.. أو) نكون كذا أو لا نكون، وعلينا أن نختار، والتخيير هنا تأتي نتيجته عادة لصالح اختيار الطرح الأول، وهو ما يصب

في إطار الكينونة والوجود، أما خيار العدم والتلاشي فيرفضه كل ذي حس سليم، وفطرة طبيعية..لنتأمل ما يقوله في بداية المقطع الثاني:

قد وضح الصبح لذي عينين

لم يبق من شك ولا من مين

أين الخلاص أين أين؟

لم يبق بين بين

إما نحوز الغايتين

أو نخسر الكرامتين؟

إما نكون أبدا

أو لا نكون أبدا

غدا وما أدنى غدا لو تعلمون

إما نكون أبدا أو لا نكون!

ففي قوله (وضح الصبح لذي عينين)، يؤكد حقيقة مطلقة لا تقبل الشك؛ وهي أن المسألة لم تعد تحتمل الموقف الرمادي أو الحالة الغائمة، ولكنها في الأفق العقلي السليم تحتم الاختيار بين النصر والكرامة أو مقابلهما الذل والهزيمة، ويطرح في ختام المقطع لازمته التي تتكرر في مقاطع القصيدة كلها عن الكينونة والعدم، ولا ثالث لهما:

إما نكون أبدا

أو لا نكون أبدا

غدا وما أدنى غدا لو تعلمون

نكون أبدا أو لا نكون.

إن النقاش المنطقي القائم على التخيير والتكرار يظل هو الخيط الرابط الذي يشد المقاطع التي تنتظم القصيدة لإثبات نبوءته بالنصر والكرامة في قلب المأساة التي تعيشها الأمة وإحساسها المريع بالهوان واليتم والعار، ولذا يلعب على فكرة الزمن التي سبقت الإشارة إليها، فإذا كانت فكرة التخيير والتكرار تقوم على صناعة المستقبل، فإن استدعاء الماضي ليكون بجوار الحاضر يصب في النهاية لخدمة هذا المستقبل والتبشير بالأمل من خلاله.

موقع الأديب علي أحمد باكثير

وإذا كان الجهاد من أوليات الطريق إلى النصر، فإن باكثير يفلسفه برؤية إسلامية تتجاوز القتال في الميدان لمجرد تأمين العيش أو الحياة، إلى الارتباط بالإيمان بالله، وأن المسألة تدخل في صميم الموقف العقدي الذي يعلم أن الموت رحلة إلى الله مالك الحياة والأجل جميعا.. لذا يكون الموت من هذه الناحية مقبولا، ويكون السعي إليه في ارتياح وجزل، ولا خوف منه أو وجل.

أفي سبيل العيش نمضي للجهاد؟

كلا بني قومي فماذا بالسداد

العيش كله إلى نفاد

والعيش لا يثبت للموت لدى الجلاد

بل في سبيل الله نمضي للجهاد

لله في المبدأ والمعاد.

إن باكثير مع استدعائه للجهاد بوصفة فكرة تشير إلى الماضي الأغر في صدر الإسلام ترتبط بتحقيق الانتصارات والأمجاد، لا يلبث أن ينتقل إلى الحاضر، رصدا ورفضا، بل وهجاء، فهو يشير إلى قادة الغرب الذين أيدوا العدوان الصهيوني على العرب عام 1967م، لاسيما ليندون جونسون – رئيس الولايات المتحدة، وهارولد ويلسون – رئيس الوزراء البريطاني، ويصفهما بالحقارة والمهانة، ويرى أن ما حل بالعرب على يد العدوان الاستعماري، وهو شديد، إذ حكم بالحديد والنار، لو عاد مرة أخرى فسوف يزول، لأن تحكم المغير لن يدوم، وكما حط يوما سيطير:

لكنها كارثة الدهور

أن يغصب اليهود أرضنا الطهور

فيدمغوها بالفجور

ويجعلوها أرضهم إلى الأبد

ونحن في الأرض بدد

مشردون كالنقد

من بلد إلى بلد

لا أحد يلوي على أحد

لا لن نكون بددا

موقع الأديب علي أحمد باكثير

إما نكون أبدا

أو لا نكون أبدا

غدا وما أدني غدا لو تعلمون

إما نكون أبدا أو لا نكون.

إذا المحنة الكبرى وكارثة الدهور كما يراها باكثير هي اغتصاب اليهود أرضنا الطهور، وجعلها أرضهم بينما يتشرد العرب، ويتفرقون بددا، فهذا الاغتصاب أشد من الاستعمار الغربي المعروف، لأنه يهوّد الأرض، ويخليها من أهليها، ويشردهم في المنافي والملاجئ ، وتتعدد الإشارة إلى الحاضر في أكثر من مقطع بالقصيدة، وذلك من خلال رفض الصلح مع الغزاة القتلة اليهود مهما كانت الأحوال في غير صالحنا، فنحن نملك قوة الوحدة العربية، ونملك البترول، ونملك الإيمان قبل ذلك، وفي التاريخ نماذج وأمثلة متعددة، تؤكد سلامة ما يذهب إليه ويدعو، ومهما فعل اليهود فإن مصيرهم إلى الهزيمة لا مفر، ولذا كان تأكيده وإصراره على رفض الصلح، ومن المفارقات آنئذ أن مؤتمر القمة الذي انعقد بالخرطوم عقب هزيمة 1967م، أصدر قراره المشهور باللاءات الثلاث: لا صلح، لا اعتراف ن لا مفاوضات.. وكأنه أخذ بفكرة باكثير التي كانت أسبق الجميع في عز المعمعة والانهيار:

لا صلح يا قومي وإن طال المدى

وإن أغار خصمنا و أنجدا

وإن بغى وإن طغى وإن هددا

وروع القدس وهدّ المسجدا

أو شاد في مكانه هيكله الممردا

وشرد الألوف من ديارهم وطرّدا

وذبح الأطفال والنساء والشيوخ ركعا وسجدا

يلتمس العدو صلحنا سدى

لا لن يكون سيدا

ولن نكون أعبدا....

والمفارقة أن باكثير كان سابق أوانه يرد على الذين تصوروا أن الصلح مع العدو سيحيل حياتنا إلى حياة رخية غنية وسنستمتع بالطعام والغذاء والكساء والسلاح.. لسبب يسير وهو أن أمريكا تعطي بيد وتأخذ أضعاف ما تعطي باليد الأخرى، ثم إنه يضع الصلح مع العدو في مرتبة واحدة مع الكفر بالله:

هيهات أن نكفر بالله الصمد

فنقبل الصلح مع الخصم الألد

وإن وعدنا برخاء ورغد

ومدد إثر مدد

من الطعام والكساء والسلاح والعدد

فإن أمريكا التي تعطي بيد

تسلبنا أضعاف ما تعطي بيد

ثم إنه متنبه على الغاية لما تصنعه أمريكا، فهي تعطي ما تأخذه منا إلى اليهود تقوية لهم ومعونة حتى يستمروا في عدوانهم، وفجورهم:

وتمنح اليهود من ثروتنا ما ليس يحصى أو يعد

ومن هنا فالقبول بالصلح والرضا بما تقوله أمريكا هو سبة وذلة وضيعة وكفر بل أشد من الكفر:

هيهات أن نقبل سبة الأبد

وذلة البلد

وضيعة الولد

إن قبول الصلح كفر بل أشد...

إن الدعوة إلى الصلح هي دعوة إلى الموت وليس الحياة، ولذا لن يقبل هذه الدعوة أحد، وستكون دعوة سدى، لأن أحدا لن يصغي إليها.

-5-

التخيير بين إرادة الحياة والموت، ورفض الصلح مع العدو مهما كانت المغريات، يمهدان للدعوة الحماسية التي يطلقها باكثير حاملة البشارة والنبوءة بالانتصار الأقدم، مهما مارس اليهود من قهر ومن فجور، ويشير عبده بدوى إلى أن باكثير يبدو متأثرا

موقع الأديب علي أحمد باكثير

بحماسة أبي تمام، والحماسات الأخرى التي عرفها الشعر العربي القديم مثل حماسة البحتري والحماسة البصرية والحماسة البغدادية وحماسة الظرفاء إلى آخر هذا النوع من الحماسات (5)، وهذا النوع من أغراض الشعر عرفته الحضارة العربية الإسلامية، بوصفة حالة إيجابية تتعلق بالدفاع عن الوجود العربي الإسلامي، وتبذل في سبيله كل غال ونفيس، حتى تتحقق العزة والكرامة والهيبة، لذا نجد باكثير يطرح في بقية المقاطع حالة من الاستنفار بدعوة أبرز الدول العربية إلى الجهاد والدفاع عن فلسطين والمقدسات وتحريرها من قبضة الغزاة القتلة، إنه يخاطب خادم الحرمين ويخبره أنه إذا كان غيره عليه واجب فعليه هو واجبان مقدسان، كلاهما دنيا من المجد ودين، فقد ذل المسجد الثالث وهان وسلمه الأمريكان إلى اليهود عداوة منهم لدين المسلمين وكتابهم وانبعاثهم، بوصف ذلك حلقة جديدة من حلقات الزحف الصليبي اللعين. وينتقل إلى الأردن فيمدح الملك حسين فتى الفتيان، ويدعو له أن يعيش بطلا طليق اليدين فهو قائد المعركتين ومليك الضفتين، فليبق سندا للعرب. ثم يحيي بالريحان دولة الكويت وشعبها، قلعة العرب، والسد الهائل الذي يحمي كيان العرب، ويشيد بحكومة الكويت حين أهابت بملوك الزيت (النفط) أن يقطعوه عن لصوص الزيت، الطغاة المجرمين عبيد صهيون حتى يخروا راكعين، ويتوقف عند أمير الكويت ودوره في معركة النفط. ثم يتجه إلى الجزائر فيلقي عليها السلام العاطر ؛ لأنها موطن عبد القادر، مسجل المآثر ومنبت الشعب الأبي الثائر، شعب المليون شهيد، وبعد الجزائر يأتي السودان فيلقى عليه تحية مسْكيّة السلام الذي آمن بوحدة العرب في مواجهة العدو، وفي ثوان أرسل جيشه إلى الميدان وسحب أرصدته من بنك الصليبي الجبان وقطع العلاقات مع الذين ساندوا العدوان، وصاح بالعودة إلى الإيمان وتكوين الكيان العربي الموحد القوي لمواجهة العدوان، ويوجه أزكى السلام للجنوب المستقل (جنوب اليمن الذي كانت تحتله بريطانيا) الذي يقاوم ويصنع ملحمة الاستقلال، ويقدم أسمى التحيات للعمال العرب، العدة الكبرى والجيش اللجب، الآخذين بحلوق المعتدين والقاطعين منهم الوتين من غير مدفع ولا طيارة، وسلاحهم الإرادة الجبارة التي تضيء كالشرارة.

إن هذا التحشيد والتحميس الذي يجمع العرب على فكرة الجهاد ليس لمجرد العيش أو الاستقلال، ولكن من أجل الغاية الإيمانية التي تجعل المسلم يسعى إلى الآخرة، والرضا الإلهي، تعززه رؤية مستقاة من الماضي على وفق إحساسه بفكرة الزمن، فهو على سبيل المثال، يرى أن من واجبنا بوصفنا أمة الحق المبين أن ندفع الظلم عن المستضعفين مثلما فعلنا في الماضي ورحمنا الناس من صولة الفرس وبغي الروم، فإنه يجب اليوم أن نريح العالم من صهيون ومن عبيده الملاعين الطغاة:

صبرا بني قومي فما أحسب إلا إنه شاء القدر

أن تنهضوا اليوم بما قام به يوما عمر

إذ جاهد الطغاة في العالم فانتصر

وحرر البشر

من مجرمي البشر

ووطد السلام في الأرض وعدله انتشر.

وإذا كانت الهزيمة ساحقة في يونيه 1967م، فإن التاريخ يقدم كثيرا من الأمثلة التي انهزم فيها المسلمون، ولكن الهزيمة لم تقض عليهم، بل نهضوا بعد انسحاق، وحققوا النصر، وانطلقوا يبنون ويعمرون ويقدمون للإنسانية أروع النماذج للسلام والعدل والحرية.

في يوم احد انهزم المسلمون، وفي يوم حنين انهزموا أيضا في بداية المعركة، ولكن الهزيمة كانت مؤقتة، عرف بعدها المسلمون سبب هزيمتهم أو تقصيرهم فعالجوه، واستطاعوا أن يصنعوا انتصارات أكبر وأعظم:

المسلمون انهزموا يومي حنين واحد

من غفلة بالمسلمين واغترار بالعدد

والمصطفى يذود عنهم ويصول كالأسد

هل ضعف الإسلام من بعد حنين وأحد ؟

لا بل علا سلطانه بعد حنين وأحد

وأنجز الرحمن ما وعد

وانتشر الهدى

ويضيف إلى هذا المقطع الذي يستدعيه من الماضي رؤيته للمستقبل، الذي يراه حقيقة ماثلة أمامه رأي العين، مكررا اللازمة التي يختم بها مقاطع قصيدته، مؤكدا حتمية الوجود الظافر، وإلا فالعدم سيكون هو البديل:

لا لن تهيضنا الخطوب أو يخيفنا الردى

إما نكون أبدا

أو لا نكون أبدا

غدا وما أدنى غدا لو تعلمون

موقع الأديب علي أحمد باكثير

إما نكون أبدا أو لا نكون

وما بين استدعاء الماضي واستشراف المستقبل، يلح باكثير على التجييش والتحميس، من خلال بث الحمية في نفوس العرب، والتبشير بهزيمة العدو اللعين:

يا ويل إسرائيل من يوم عصيب

يعلو نحيبها به لو كان في إمكانها النحيب

دامي الضحى مخضب المغيب

يثني به البحر على الكثيب.

إن باكثير يستشرف اليوم الأغر الذي يترقبه، والعرب يترقبونه أيضا، من خلال الانقضاض على العدو ودحره تماما في مواجهة فاصلة:

لابد من يوم أغر

ننقض فيه كالقدر

على عدونا الأشر

على اليهودي الذي فجر

حتى يلوذ بالجدر

فليس تأويه الجدر

وما له منا مفر.

وهناك دعوات مبثوثة ومباشرة للقتال ضد العدو ن لردعه وسحقه وتخليص العدو من ويلاته وشروره، مع التأكيد على عدم التخوف أو التهيب من طغيانه أو جبروته، وأيضا مع تقديم الحيثيات التي تستوجب قتاله ومواجهته:

فقاتلوا يا عرب

أئمة الكفر ولا تهيبوا

أئمة الطغيان

الحاكمين الآن

في دول العدوان

ليس لهم أيمان

ولا مواثيق تصان......

ويرى باكثير أن القتال ضد العدو هو التحدي الأكبر الذي لا مفر للعرب من قبوله، حتى يأتي اليوم الأغر:

هذا التحدي الأكبر

قد جاءنا على قدر

يكمن فيه الخطر

وما لنا منه مفر

سيروا بني العرب إليه

وقاتلوا بين يديه

حتى يتم الظفر

ويشرق اليوم الأغر

يومئذ نخر ساجدين

لله شاكرين حامدين....

-6-

من أبرز الظواهر الفنية في القصيدة المطولة لباكثير إضافة إلى ظواهر التكرار والتخيير والعرض المنطقي، ظاهرة التأثر القرآني تضمينا أو تناصا، ويرجع ذلك إلى ثقافة الشاعر، وانتمائه إلى الثقافة الإسلامية، وانحيازه إليها، وهي ثقافة أساسها القرآن الكريم دستور الأمة ومنهجها الأساس، والتأثر الشعري بالقرآن الكريم مبثوث في أثناء القصيدة، ويستطيع القارئ للقصيدة أن يلمسه في أكثر من موضع، فإذا قرأنا المقطع الختامي سنجده، يستدعي قوله تعالى **" إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون "** (6)، وقوله تعالى **" والطور، وكتاب مستور، في رق منشور، والبيت المعمور "** (7)، وقوله تعالى: **" كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله.. "**(8)، وقوله تعالى: **" ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين "** (9).. يقول المقطع الختامي:

لا والذي يقول كن لما يشاء فيكون

وقسما ببيته المحرم المصون

لمثلما كنا قديما سنكون

موقع الأديب علي أحمد باكثير

ومثلما أرادنا كتابنا سوف نكون

أعزة مناضلون!

وأقوياء عادلون!

لا لن نذل أبدا ولن نهون

وإن تواطأ الطغاة أجمعون

فليسمعوا.. هل يسمعون؟

وليشهدنّ العالمون

إنا علينا أن نكون

أعزة أو لا نكون

إن استحضار الإرادة الإلهية المطلقة أو طلاقة المشيئة الإلهية، يعني أن الهزيمة والضعف والهوان ليست أمورا أبدية، ولكنها أمور مؤقتة تتغير حين يأخذ العرب بالأسباب ويرتبطون بالإيمان؛ سوف يجدون عندئذ النصرة الإلهية في معيتهم، إن الشاعر يقسم بمن يملك القدرة الإلهية، ومن يقول للشيء كن فيكون، ثم يقسم بالبيت المعمور، المحرم المصون، إذ يأتي جواب القسم حادا ومحددا وعنيفا ومرعبا ؛ لمن وقفوا ضد المنهج وضد التوحيد والقدرة الإلهية والبعث والحساب، واستمرؤوا الظلم والبغي والعدوان: " **إن عذاب ربك لواقع، ما له من دافع، يوم تمور السماء مورا، وتسير الجبال سيرا.. فويل يومئذ للمكذبين.. "** (10)، إن استدعاء القسم بالبيت المعمور، المحرم المصون، ليس مجرد قسم عادي، وإنما هو قسم له ما بعده يؤكد انتصار العرب أو تحقيق الوعد بالنصر، وما يتبع ذلك من هزيمة تلحق بالمعتدين " إن عذاب ربك لواقع.."، ومثلما كنا قديما سنكون ومثلما أرادنا القرآن الكريم " كنتم خير أمة.." سنكون أعزة وأقوياء " إنا علينا أن نكون، أعزة أو لا نكون " ..

هكذا يأتي الحضور القرآني تضمينا ذا دلالة تمنح المعنى، بعدا إيمانيا من ناحية، وتأكيدا لتحقيق مضمون القسم بالكينونة والوجود من ناحية أخرى. وإشارة إلى عمق الوعي بالقرآن الكريم وآياته لدى الشاعر، ورهافة إحساسه بدلالة الآيات الكريمة وموهبته الساطعة في استخدامها في مواضعها لتخدم الفكرة أو الأفكار التي يريد أن يبثها، ويرسلها إلينا نحن القراء.

وبصفة عامة يتفاوت التأثر بالقرآن الكريم في القصيدة عمقا وسطحية بحسب الموقف الانفعالي للشاعر، والظرف الذي كتب فيه المقطع الشعري، فقد يأتي التأثر عميقا

كما رأينا في المثال السابق، وقد يأتي في إطار مباشر كما نرى في قول الشاعر تعبيرا عن اليوم الأغر الذي تنهزم فيه قوى العدوان وتلوذ بالجدر:

وما له منا مفر

نصليه من نار سقر

والنار لا تبقي ولا تذر

إلا جسوما في الحفر

كأنها أعجاز نخل منقعر..

والأبيات تصوير لحال المنهزمين اليهود في اليوم الأغر المأمول، ومعظمها يشير إلى آيات قرآنية مشهورة، فالبيت الأول "وما له منا مفر" يذكر بقوله تعالى "**يقول الإنسان يومئذ أين المفر؟**" (11)، والبيت الثاني والبيت الثالث " نصليه من نار سقر، والنار لا تبقي ولا تذر"، يستدعيان قوله تعالى "**سأصليه سقر، وما أدراك ما سقر لا تبقي ولا تذر**" (12)، والبيت الخامس "كأنها أعجاز نخل منقعر " هو تشبيه طبق الأصل من قوله تعالى: "**تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر**" (13)، والآيات المؤثرة تصب كلها في سياق ترهيب المخالفين لمنهج الله، والمتحدين لقدرته، والمشركين به، إذ يعرض عليهم ما يجري بعد البعث من أهوال لا يستطيعون منها فرارا، وعذابا لا طاقة لهم به.

ونستطيع أن نلمح هذا التفاوت في التأثر القرآني عبر القصيدة الطويلة، في مواضع متعددة يدركها القارئ الذي يحفظ القرآن الكريم، ويفهم أبعاده الدلالية والمعنوية، ومنها قول الشاعر عن ضرورة استخدام سلاح البترول ضد الأمريكان والدول المساندة للعدوان الصهيوني على العرب:

فالطم بكف النفط وجه الأمركان

واقطع به من كفهم كل بنان

هم العدا لا بد من ضرب العدا...

أو يشبه يوم الحساب بالنسبة إلى من يمتنعون عن استخدام النفط، ويخونون عهد العرب والإسلام بقوله:

وهو أمام الله مسئول غدا يوم تصير وردة مثل الدهان

أو يصور المستعمرات اليهودية في النقب بجنوب فلسطين بقوله:

موقع الأديب علي أحمد باكثير

وفي رمال النقب في الجنوب

مستعمرات جوها كئيب

أصابها من السماء حاصب فهي حصيب

جوارح الطير بها تلوب على موائد غنية بلا نضوب

أو في تصوير حال العربي اليوم:

والعربي اليوم إما مؤمن بربنا أو بهبل

إما يقول: الله أعلى وأجل

أو فليقل بملء فيه: اعل هبل

من شاء فليكفر ومن شاء اهتدى

إما نكون أبدا

أو لا نكون أبدا...

-7-

ولا شك أن مسيرة باكثير في القصيدة تؤكد عمق إدراكه للصراع بين العرب، والمسلمين عموما وبين الغرب الاستعماري من خلال صنيعته الصهيونية في فلسطين المحتلة، وقد ساعده على ذلك ثقافة أصيلة في جانبيها الإسلامي الناضج، والأجنبي المضيء، فقد تربى على القرآن الكريم والحديث الشريف والعلوم الشرعية في صباه، ثم درس اللغة الإنجليزية وآدابها في شبابه من خلال كلية الآداب جامعة القاهرة، ثم ذهابه إلى إنجلترا ليستوعب الثقافة الغربية في بيئتها الأصلية، وهذا أهّله ليقرأ القضايا التي يعالجها قراءة تفقه المقدمات جيدا، ويصل إلى نتائج دقيقة جعلت مسرحياته وقصصه وشعره، تدخل في سياق ما يعرف بأدب النبوءة أو استشراف المستقبل، والتبشير بالنصر، وهزيمة العدوان، وقد أكدت الأحداث قيام دولة العدوان النازي اليهودي ؛ كما تنبأ بذلك في مسرحيته (شيلوك الجديد)، وسقوط الشيوعية كما تنبأ باكثير في روايته (الثائر الأحمر) قبل عقود من سقوطها أوائل التسعينيات من القرن العشرين، وعودة الشعوب الشيوعية إلى الدين مرة أخرى، وكانت مطولته التي بين أيدينا " نكون أبدا أو لا نكون " بشارة بالعبور في رمضان 1993 هـ = أكتوبر 1973 م، وكسر ذراع الصهيونية الطويلة، وهدم سد بارليف الحصين الذي قالت التقديرات العسكرية الأجنبية إن اختراقه يحتاج إلى ثلاثة قنابل نووية، ولكن الإيمان بالله وإعداد القوة المستطاعة، واستخدام سلاح البترول كما

طالب باكثير، حققت جميعا نصرا تاريخيا ، ومعركة فريدة في التاريخ مازالت تدرس في الأكاديميات العسكرية العالمية حتى اليوم.

وللأسف فقد توفي باكثير قبل أن يرى العبور أويرى العلم المصري مرفوعا على الضفة الشرقية لقناة السويس، وفرار اليهود الغزاة، وأسرهم منكسي الرؤوس..

وللأسف فإن النصر الذي تحقق، لم يمض في الاتجاه المتنامي، وجاءت المبادرات، والانتكاسات التي أعادت العرب إلى المربع الأول، ولكن رؤية باكثير تبقى هي الرؤية الأصوب، وتظل الانتكاسات التي يعيشها العرب بعد حرب رمضان بما يقرب من أربعين عاما، مجرد انتكاسات مؤقتة وعارضة، لأن العدو ومن يدعمونه لا يريدون سلاما ولا إعادة لحقوق العرب والمسلمين، ولذا سيظل الصراع قائما حتى ينهض العرب والمسلمون مرة أخرى على وفق ما تصوره باكثير من ضرورة الجهاد في سبيل الله، واتخاذ الوسائل الممكنة، والوقوف في وجه الداعمين للصهاينة وقفة تليق بالعرب والمسلمين وعزتهم وكرامتهم.

وكما قال باكثير في ختام مطولته:

لا لن نذلّ أبدا ولن نهون

وإن تواطأ الطغاة أجمعون

فليسمعوا.. هل يسمعون؟

وليشهدنّ العالمون

أنا علينا أن نكون

أعزة أو لا نكون.

موقع الأديب علي أحمد باكثير

الهوامش:

1- من كلمته التي ألقاها في حفل تأبين باكثير باسم الاتحاد العام لكتاب فلسطين بالقاهرة، 1970، نقلاً عن كتاب: محمد أبوبكر حميد، علي أحمد باكثير في مرآة عصره، مكتبة مصر، القاهرة، د. ت. ص

2- اهتم محمد أبوبكر حميد بنشر إنتاج باكثير المخطوط، وتجميع المنشور في المجلات والصحف، وخاصة الشعر، فنشر: ديوانه (أزهار الربا في شعر الصبا)، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، توزيع دار المنهل، بيروت، 1408 هـ =1978 م، ثم (سحر عدن وفخر اليمن)، مكتبة كنوز المعرفة، جدة/ السعودية، ودار حضرموت بالمكلا /اليمن، 1429 هـ = 2008م، وهناك ديوانان آخران في طريقهما إلى النشر أولهما صبا نجد وأنفاس الحجاز، ووحي ضفاف النيل، والدواوين الأربعة تغطي مراحل حياته في حضر موت وعدن والحجاز ومصر.

3- نشرت القصيدة أولا ضمن دراسة طويلة في كتيب صدر عن نادي جازان الأدبي – السعودية عام 1981م، ثم ظهرت مع الدراسة في كتابي "القصائد الإسلامية الطوال في العصر الحديث – قراءة ونصوص" في طبعات متعددة، أحدثها الصادرة عن دار النشر الدولي – الرياض، 1430 ه = 2009 / (طبعة مزيدة ومنقحة).

4- كتاب الحكمة، وثائق مهرجان باكثير، دار الحداثة، بيروت، 1988م، ص 102-103.

5- السابق، ص 101.

6- سورة النحل: 40، وانظر سورة مريم: 35، ويس:83، وغافر: 68.

7- سورة الطور: الآيات 1-4.

8- سورة آل عمران: الآية110.

9- سورة المنافقون: 8.

10- سورة الطور: الآيات 7 – 11.

11- سورة القيامة: الآية 10.

12- سورة المدثر: 26 – 28.

13- سورة القمر: 20.

موقع الأديب علي أحمد باكثير